الانحراف

في فن الطرب

رحمة الله على عبده ، والشيخ يوسف المنيلاوي ، والشيخ سلامه حجازي ، وزملائهم من أئمة الطرب القديم الذي كان شائعاً في بلاد الأغريق ، واستمبول وتوابعها وبغداد ، وحلب ، والشام ، ومصر ، وإيران ، وغيرها من البلاد الشرقية التي نبغت في فن الطرب نبوغاً لا نظير له . غفر الله لأولئك الأئمة العظام فقد اجترموا جريمة لا تغتفر إذ دوزنوا أوتار أعصابنا الموسيقية دوزاناً فنيًّا بديعاً . ولكنه بغير أسف لا يتفق مع الموسيقى الأفرنجية بتاتاً ، ولا يمكن أذواقنا أن تستسيغها . وما حسبوا حساب ان المتطفلين على الفن سينتحلون الألحان الأفرنجية ويمسخونها ويدّعون أن مسخها تجديد في الفن . وقالوا هذا هو الطرب الجديد فخذوه وتمتعوا به ، ونحن الذين ألفنا ذلك الطرب القديم تنبو أسماعنا عن هذا الجديد ، وتقزّ أنفسنا منه ، وترتجّ أعصابنا ارتجاجات تزلزل مراكز الدماغ

يكاد ذلك الفن القديم الذي عاش لا أقل من ١٥ قرناً يتلاشى ، ولا سيما في مصر ، ولم يبق عندنا هنا من يمثله ويحسن عزفه وغناءه سوى بضعة أشخاص معدودين ، وصرنا نخاف أن يُحرَمَهُ حفداؤنا حرماناً كليًّا ولا يعرفون عنه إلاّ خبره وبعض أعوفجات منه محفوظة في الاسطوانات (الأقراص) من أدوار ، وموشحات ، وبشارف . بل صرنا نخاف أن هذه تفنى من الوجود أيضاً لأننا سألنا عن بعضها عند تجارها فقالوا لنا « البقية في حياتك » . واذا ابتغيناها في صحف العلامات الأفرنجية لا يمكن أن تعبر عن ألحاننا ولا سيما الآن بين الطرين بوناً عظيماً كما سنفسره فيما بعد .

لقد طغت الموسيقى الأجنبية علينا حتى تغلغلت في موسيقانا ، وجعل أهل الفن عندنا يمارسونها بدعوى التجديد ، وما هو إلاّ اقتباس الفن الأفرنجي ومحاولة تطبيق الكلام العربي عليه . وقد قيل لنا والمهدة على الراوي ان بعض ذوي الفن الأفرنسيس سيقاضون

لدى حاكمنا الأهلية أحد الفنانين ، وهو مصري ، لأنه افتعل أخانهم بتقديمه عيبي فيه وادعاها لنفسه، فاذا هي ممزوجة مسخاً شنيعاً .

لا نفهم ما ذا يراد بهذا التجديد . ونحن نفهم أن المراد بالتجديد هو ابتكار أوزان جديدة في « التلحين والنظم » في اصطلاح الموسيقيين . أو ابتكار أنغام طريفة ، لا اقتباس أنغام وألحان أجنبية ومسخها . ان موسيقانا تتجدد بطبيعة الحال من تلقاء نفسها مع الزمان بما يضاف إليها من الأغاني والموشحات والأناشيد وسائر القطع الموسيقية الجديدة من تقاسيم ومرشحات وأدوار وبشارف ونحو ذلك . ولكن مهما أضيف إليها من هذه فقد لا يمكن أن يضاف إليها نغمات غير ما فيها لأن ما فيها الآن لا يقل عن ٣٠ نغماً . وقد لا تحتمل مزيداً على الرغم من أن فيها من الدرجات وكسور الدرجات (النصف والربع والثمن فضلاً عن الدرجة الكاملة) ما يسهل لها أن تحتمل كل مزيد .

نقصد بالأنغام أو النغمات الفنون التي تتألف من استعمال كسور الدرجات كالبياتي والرصد والحجاز كار والشهرناز الخ .

فمن يروم التجديد فليبتدع فيها أنغاماً جديدة غير هذه وأخواتها مما هو معروف ، لا أن يسرق من الألحان الافرنجية لحناً ويمسخه . ومهما بزع في اقتباس الألحان الافرنجية فلا يستطيع أن يأتي بأفضل وأطرب من ألحاننا العربية ، لأن السلم الموسيقية الافرنجية ليس فيها الا الدرجة الكاملة ونصف الدرجة . ولا تستطيع أن تركب من حرفين (درجتين) ما تستطيع أن تركبه من أربعة أحرف (٤ كسور الدرجات) ، من حرفي م د لا تستطيع أن تركب أكثر من « ندّ » و « دمّ » و « مدّ » و « دن » ولكنك من م د ج ص تستطيع ان تركب مئات الكلمات . هكذا الأمر في الأنغام .

لما وافانا عصر الاذاعة اللاسلكية اعتقدنا ان الراديو سيكون داعياً لتنافس الملحنين في التلحين على أساس طربنا الذي ولدنا فيه ورضعناه مع لبننا . كنا نتوقع ان يتبارى الملحنون عندنا في وضع نغمات جديدة وتوشيحات طريفة وأغانٍ مستطرفة على مختلف الأنغام من الرصد الى الاصفهان الى النهوند الخ . وان يبتدعوا لنا بشارف جديدة تضارع البشارف التركية، أو أجمل من بشرف رصد لعاصم بك، وبشرف عشاق لحسان بك، أو خط

هربان ، وبشرف البياتي لاسحاق بك . ما سمعنا بشرفاً جديداً إلاّ بشرف رصد للنابغة الأستاذ صاحب الشورا ، بشرفاً رائقاً رقيقاً كأنه حديث الملوك، هو حديث طرب من أحاديث صاحبه الفطينة الممزوجة أحياناً بالمزاح . ويقال إن بشارف الأستاذ النابغة توفيق صباغ التي يدرّسونها الآن في المعهد الموسيقي الملكي تضارع البشارف التركية .

لم نسمع في الاذاعة تنافساً في ألحانها، بل تنافساً في مسخ الألحان الأفرنجية وتعريبها ، فأصبحنا كأننا نرى ريش طاووس في ذيل حجل . فذهب جمال الطاووس في مكروج هذا الحجل ، وأصبحنا ونحن نسمع هذه الألحان الممسوخة كأننا نسمع أنكر الأصوات ...

أجل لم نسمع في الاذاعة تنافساً في ألحاننا الشرقية المصرية على الخصوص وبدعاً فيها كما كنا ننتظر. بل صرنا نسمع « نشازاً » كما يسميه المطربون وأهل الطرب . لم نسمع الانشاد التي كانت تنشدها كبيرة المطربات ونقيبة المطربين من « مالي فتلت ... » و « حقك أنت المنى والطلب » و « غيري على السلوان قادر » . و « فتكات لحظك أم سيوف أبيك » . وحلّت « أخاف يكون حبك لي شفقة عليّ » محل « أراك عصيّ الدمع » وبين النظمين واللحنين أبعد مما بين الباسفيك والاتلانتيك » . وهل في الاناشيد أجل من « أراك عصيّ الدمع » هذه نظماً ومعنىً ومغنىً ؟

جزاكم الله بصقراً يا بشر . أبدلتم نقيق الضفادع بطرب البلابل .

تالله هل فقدتم الذوق أم ركبتكم جنّة التجارة الموسيقية . فصرتم تتسابقون الى بورصة الاذاعة بين متطفلين ومسامرة ومستغنين ومحاسيب

هذه هي شرعة الراديو الديموقراطية ان يتولى الأمر مسامرة الفن لا أبناؤه فيفرضون عليك ان تسمع هذا وذاك، لا هاتيك ولا تلك، فتسمع الطبل والزمر ونحوهما . ثم يدّعون ان الاذاعة في الراديو ترقي الذوق الموسيقي في الجمهور كما هو مفروض وهو منتظر. ولكن ليس شيء من هذا .

لم نعد نسمع في الراديو إلاّ كل من فتنه الغرور، فظن ان الله وهبه صوتاً جميلاً لا نهيقاً منكراً ، واعتقد ان الطرب إنما هو في الهيق وجهل ان الطرب فن ، وان التلحين أسمى درجات الفن وانه أعظم قيمة من الصوت . وأنا حين أسمع دور « يلمي قوامك يعجبني » من سيد درويش نفسه (وصوته دون الاعتيادي جمالاً) أصفق له تصفيقاً حاداً . واذا سمعت أم كلثوم تنشد (غيري على السلوان قادر) أصفق لأبي العلا الذي لحن القصيدة لاالها . أما الذين يظنون ان الله وهبهم الصوت الجميل فصاروا يرجّلون ألحان القصائد ترجيلاً ، فانهم ان الابداع في الصوت، ولا أهمية للحن . ولذلك صار كل من

تبلغه الواسطة مجاناً في غرفة الإذاعة يرتجل نشيداً بحسب الطلب فوراً.

سمعت مرة في الإذاعة « سوريتا » تنشد ٢٠ مرة على يدها ما لم تنله يدي ٢٠ في نصف ساعة يردد كل بيت من أبيات الأربعة الأدوار مراراً. ولكن (أبارك الله) على وتيرة واحدة. أنشد كل بيت من هذه الأربعة خمس مرات أو ستاً على الأقل مع غير ان يتغير في اللحن شيئاً، فكان النشيد البيت الأخير كالنشيد البيت الأول. ولو كان في مقال يدي هو ومن أجاز له أن ينشدنا لنفسهما. عفواً وعذراً.

كذا ابتدأت السيدة أم كلثوم في أول عهدنا تنشد «صحت بإرسال الدموع شواهدي» فكانت تنشد كل بيت كالذي سبقه من غير تفنن أو تلحين. فقلنا لها في مقال « سبحان من أبدع وسمّى يا أم كلثوم. الصوت لم يبدع الله أجمل منه. ولكن التلحين مخدر. يا سيدة الطرب، ليس الطرب صوتاً فقط بل هو فن أولاً. فتعلمي ما لحنه أبو العلا والقباني وسيد درويش وداود حسني، ثم اطلعي على المنبر. فتقول الله اكبر». فغطت، ثم اسمعتنا من القصائد الملحنة ما يليق أن تنشده مع الملائكة حول عرش الله تعالى. ثم ما لبثنا أن صرنا نسمع ألحان التجديد. وأغفلت كل ذلك القديم فنقمنا على كل من لحن جديداً وغنى جديداً. أليس لهؤلاء المغنين والملحنين ذوق.

لحن أحدهم رواية «عائدة» العربية، فجبها الجمهور. فاضطرت ادارة الأوبرا أن تكلف الأستاذ زكريا أحمد أن يلحنها على المنهاج العربي. فنجحت.

يقولون لك إن هذا ما يريده عامة الشعب. تبّاً لكم! أتتعلم الذوق من عامة الشعب أم أن المراد بالاذاعة أن ترقي ذوق الشعب — كذبوا لا يريد هذا الا المتطفلون الذين رأوا انه صار للغناء ثمن بفضل اللاسلكي. فصاروا يتطفلون ويلحنون ويغنون وهم بلا ذوق موسيقي.

الشعب ابن طرب ولكنه ليس ابن فن. فما تقدمه له يستسيغه بقدر. وأخيراً تدوزنت أوتار أعصابه السمعية على سوخ طرب التجديد هذا. فالذين نشأوا على هذا الطرب ظنوا أن هذا هو المثل الأعلى في الطرب. ولو سمعوا القديم لتغير رأيهم. والذين كانوا يسمعون القديم لمروا الجديد ومن أدخله على عالم الطرب.

لا يستحسن مما تغنيه أم كلثوم إلا ما كان فيه شيء من القديم.

نسأل المجددين هل يمكنهم أن يلحنوا دوراً أو موشحاً؟ إذن فليسموا أبناء فن وما هم موسيقيون.

عندنا في موسيقانا الشرقية أو بالأحرى العربية ثروة طرب لا تضاهيها ثروة الأمم

الأخرى . ولكن بكل أسف انها تحتضر الآن . تكاد تذهب وتدفن غير مأسوف عليها لأنه ليس في الجيل الحاضر من تعلمها وعرفها حتى يترحم عليها .

قال لنا بعض أساطين الطرب القديم أن في عالم الموسيقى العربي فصل عزف وغناء يشغل نحو ٣ ساعات يسمى « فصل العطاش » ، يشمل جملة من نخبة التواشيح والمقطوعات الفنية التي لا تضاهى . وقد عرفنا الآن من يعزفونها ويغنونها ثلاثة : هم الأساتذة الكبار سامي الشوّا ، وأخوه فاضل ، وجميل عزت . ولا ندري إن كان يوجد غيرهم هنا في مصر . ولكن يقال إن في حلب الشهباء بعضاً آخرين يعزفون ويغنون هذا الفصل . فاذا لم يتعلمه بعض موسيقي مصر وغيرها ، ذهب بذهاب ذلك البعض ، أطال الله أعمارهم . جيدا لو كان عازفو هذا الفصل يحيون ليلة طرب في الأوبرا أو في أي مسرح آخر كبير ويعزفونه ويغنونه ، فكان نحو الطرب يدركون قيمة التجديد الى جنب قيمة هذا القديم المنبوذ .

صرنا نخاف أن يمضي هذا الجيل ولا يبقى للجيل القادم الا بعض الطرب الجديد وهو ممسوخات الأجنبي والقديم ، فيصبح الجيل الجديد وليس عنده موسيقى يمكنه أن يفتخر بها .

رأينا الاذاعة محتكرة فلا يصل اليها إلا أشخاص لهم من أصدقائهم ومن وسائلهم غير المحمودة أحياناً سندات يتوسلون بها . فلا نسمع إلا القليل من أهل الفن ، والكثير من الطفيليين . وأما معظم أهل الفن النابغين فلا يلتفت اليهم . وقد روى لنا أحد هؤلاء النوابغ أنه دعي للاذاعة وطلب اليه أن يعزف ويغني للتجربة والامتحان ، مع أنه معروف جيداً ، وكان يسمعه في حفلات خاصة أمراء ووزراء وكبراء ، وكانت الاذاعة تذيع بعض اسطواناته ، فمن قلة الذوق أن يستدعى ليُمتَحن . ولكن مجلس الاذاعة الأعلى رام ان يطرب ساعة ، وبعض الساعة ، حتى ضجر الرجل من امتحانهم السمج فسكت . ثم قيل له . غداً ان شاء الله يصلك خطاب لكي تأتي وتمضي العقد . وقد مرّ الى الآن ١٧ سنة على هذا الوعد ولم ينجز العقد .

وقد سئل يوماً أحد رجال الاذاعة : لماذا لا تستدعون فلاناً لكي يذيع شيئاً من تحف الفن . فقال ان « فلاناً غير محتاج » . فكأن الاذاعة تكية للمحتاجين ، لا مصدر اذاعة للجمهور المطلوب للطرب المحبوب .

وهكذا يبقى الشعب محروماً فطاحل الفن ، لأن لا رزق إلا للمحتاجين . والحكومة تتقاضى في العام ٣ أرباع المليون جنيه ضرائب على آلات الراديو أفلا تكفي للمحتاجين ولأهل الاذاعة .

ان مصلحة الاذاعة عندنا مريضة تحتاج الى علاج .